

لماذا مات المسيح؟ الجزء الثاني

د. جيني كونستانتينو

في الشهر الماضي، بدأت الردّ على سؤالٍ يطلب منّي شرح الفرق بين تفسير المسيحيين الأرثوذكس لمعنى موت المسيح، وبين فهم الكاثوليك أو البروتستانت لهذا المعنى.

أوضحت في الجزء الأول أنّ المسيحية الغربية أصبحت تفسّر الصليب على أنّه بشكلٍ رئيسٍ دفع لثمن الخطيئة. [وفقاً لهذا المنظور] نحن مدينون لله بدينٍ لأننا أخطأنا، أو يُنظرُ إلى الخطيئة على أنّها جريمةٌ نستحقُّ عليها عقاباً من الله. لقد "فعلنا" شيئاً أثار "غضب" الله، وهو أمرٌ يجب أن ندفع ثمنه أو نُعاقب عليه لأنّ الله "عادل".

ليس هذا التفسير كتابياً، ولم يكن منظور الكنيسة الأولى. مع أنّ آباء الكنيسة قد استخدموا هذه الصُّور لوصف الخطيئة أحياناً، فهم لم يؤسّسوا حول هذه الفكرة لاهوتاً كاملاً للخلاص. فهذا يجعل خلاصنا بالمسيح من خلال موته على الصليب أشبه بصفقةٍ أو وفاءٍ بالتزامٍ قانوني، وهو أمرٌ يعترض عليه الأرثوذكس للأسباب التالية، وأسبابٍ أخرى:

أولاً، هذه النظرة تجعل الله "المشكلة" التي يجب حلُّها. غير أنّ المشكلة تكمن فينا نحن لأننا أخطأنا.

ثانياً، تقدّم هذه النظرة الله تقديمًا غير لائق، وكأنّه إنسانٌ "يغضب". إنّ الله يعمل دائماً لصالحنا بدافع المحبة. وإنّها لصورةٌ مرعبةٌ عنه أن يجعل ابنه البريء يُعاني على الصليب بدافع الانتقام أو الغضب.

ثالثاً، يجعل هذا الفكر علاقتنا بالله علاقةً قانونيةً، بدلاً من أن نكون أبناءً له وبنات.

رابعاً، ليست الخطيئة جريمةً أو ديناً، بل هي مرضٌ روحيٌّ نلجأ فيه إلى المسيح والآب طلباً للشفاء، ممّا يُصلحُ علاقتنا التي أفسدتها الخطيئة.

خامساً، يضع هذا المنظورُ الله "تحت الإلزام"، حيث "يرغب" في مسامحتنا، لكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنّه "عادِل". إذا كان شخصٌ ما "مضطراً" لدفع ثمن خطيئتنا، فلن يكون الله حرّاً في التصرف كما يشاء. وهو ليس "تحت الإلزام"، إنّه الله ويمكنه فعل أيّ شيء.

سادساً، إنّ هذه النظرة للخلاص التي تعتبر أنّ كلّ شيءٍ قد تحقّق لأنّ المسيح "دفع" ثمن خطايانا، تجعل من القيامة أمراً ثانوياً. على العكس، يأتي خلاصنا من غلبة المسيح على الموت، لا بوصفه دفع ثمن للخطيئة.

اعتراضات الكاثوليك والبروتستانت

كثيراً ما يعترض الكاثوليك والبروتستانت على الفهم الأرثوذكسيّ للصليب قائلين: ماذا عن متطلّب سفك الدّم للتكفير عن الخطايا؟ إذا لماذا يُعتبر موت المسيح ذبيحة؟ لماذا يُدعى موت المسيح فديةً أو افتداءً؟

"ماذا عن متطلّب سفك الدّم للتكفير عن الخطايا؟"

إنّ الكفّارة/التكفير (Atonement) هي مفهومٌ قانونيٌّ يعني التزاماً قانونياً بالدفع لشخصٍ ما. إلا أنّ هذا المصطلح غير موجودٍ في الواقع في الكتاب المقدّس، سوى في الترجمات الإنكليزيّة. لا توجد كلمة يونانيّة واحدة في الكتاب المقدّس استُخدمت لوصف الصليب تحمل ذلك المعنى. ظهرت لفظة "كفّارة" للمرّة الأولى في الترجمات الإنكليزيّة، مثل ترجمة الملك جيمس، واختيرت تحديداً لأنّها تعكس تلك الفكرة الغريبّة عن الصليب بوصفه دفع ثمن. بعبارةٍ أخرى، مع أنّنا قد نتحدّث عن موت المسيح بوصفه كفّارة، فاللفظة اليونانيّة الكامنة وراءها لا توحى بذلك على الإطلاق.

إذا ما هي اللفظة؟ ثمة عددٌ من المصطلحات اليونانيّة التي تُرجمت إلى الإنكليزيّة بكلمة "atonement" أو الفعل "atone"، لكنّ تلك المصطلحات اليونانيّة لا تحمل هذا المعنى القانوني. إحداها هي "καταλλαγή" التي تُرجمت إلى "atonement" في الرسالة إلى رومية 5: 11 في ترجمة الملك جيمس، ولكنّها تُرجمت ترجمةً أدقّ بـ "مصالحة" (reconciliation) في النسخة المراجعة (RSV). وتحمل دلالةً مختلفة، دلالة استعادة علاقةٍ بدلاً من سداد التزام.

يرد في الرسالة إلى رومية 3: 25 عن المسيح "الذي قدّمه الله كَفَّارَةً بدمه...". اللفظة المستخدمة هنا هي "ἱλαστήριον"، وتُرجمت أحياناً بـ "expiation"، وأحياناً بـ "atonement"، وأحياناً بـ "propitiation". تُستخدم هذه الكلمة في الحديث عن الذبائح وتحمل دلالة "التغطية". عندما كان اليهود يقدمون ذبيحة في الهيكل، كانت الخطايا "تُغطى"، أي أنّ الله لا يعود "يراها"، ما يعني أنّ الخطيئة قد اختفت فعلياً ولم تعد مهمّة. ولم يكن ذلك يوحي بـ "دفع الثمن". إنّ الكلمة التي تُرجمت إلى "atonement" ترد أيضاً في الرسالة إلى العبرانيين (9: 5).

عندما يختار المترجم كلمة إنكليزية مثل "atonement" بدلاً من كلمة توحى بـ "التغطية"، فإنه يخلق صورة أو مفهوماً في ذهن القارئ يعزّز النظرة القانونية لموت المسيح. ويمكن قول الأمر عينه عن كلمة "التبرير justification"، التي تُستخدم استخداماً شائعاً جداً في الغرب نظراً لتكرار ورودها في الترجمات الإنكليزية للإنجيل، لا سيّما في الرسالة إلى أهل رومية. توحى كلمة "التبرير justification" بعلاقة قانونية مع الله، لأنّ جذر الكلمة هو "العدل justice"، لكنّ المصطلح اليوناني هو "δικαιοσύνη"، وهي الكلمة عينها التي تُرجمت في مواضع أخرى إلى "برّ righteousness". تتكرّر كلمة "برّ" في إنجيل متى - "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه..."، ولا تُترجم الكلمة إلى "تبرير" في هذا السياق، بل تُترجم هكذا في الرسالة إلى أهل رومية، وهو النصّ الذي يلجأ إليه البروتستانت ليثبتوا أنّ يسوع دفع ثمن خطايانا.

لا يحمل المصطلح "برّ" صبغة قانونية قويةً مثل المصطلح "تبرير"، لكنّهما المصطلح عينه في اليونانية. لذا يجب أن نتذكّر أنّ أفكارنا تُصاغ بناءً على المصطلحات التي يختارها المترجم. وإذا كان لدينا أصلاً فهمٌ قانونيٌّ للخلاص، فإنّ قراءة كلمات مثل "التبرير" و"التكفير" تعزّز هذا الفهم. إلا أنّ إسقاط الناس هذه المفاهيم على الكتاب المقدّس لا يعني أنّ هذه هي الطريقة التي فهمت بها الكنيسة الأولى الصليب.

"لكنّ الكتاب المقدّس يقول إنّ موت المسيح كان ذبيحة!"

نعم، مات المسيح من أجلنا وموته كان ذبيحة. لا أحد يجادل في ذلك. ولكن، مرّةً أخرى، هذا لا يعني أنّه كان "دفعاً" لثمن الخطيئة. هذا افتراضٌ يفترضه المرء إذا كان متأثراً بألف عامٍ من اللاهوت المسيحيّ الغربيّ الذي يُفسّر الصليب على أنّه "دفع ثمن".

لنبدأ بفكرة الذبيحة. كانت الذبيحة عند اليهود "تقدمة"، وعملاً من أعمال العبادة. هكذا بالضبط يصفُ المسيح تقديمه نفسه في ليلة الخميس العظيم المقدَّس في العشاء الأخير في يوحنا 17. فهو يُصلي للآب ويكرِّس نفسه ذبيحةً. عندما نحضر الخبز المقدَّس (قربان الذبيحة) إلى الكنيسة من أجل القدَّاس الإلهي، يكون تقدمةً مقدَّسةً لله، وليس دفعًا لثمن. لم يفكر اليهود في "الذبيحة" على أنها "دفع ثمن"، لأنَّ الله لا يحتاج إلى أيِّ شيءٍ مِنَّا، ولا يطلب مِنَّا أيَّ شيءٍ سوى محبَّتنا وتكريسنا له. وكان اليهود يدركون ذلك أيضًا. كانت الذبيحة وسيلةً "لتغطية" الخطيئة ممَّا يجعلها "تزول"، وبالتالي استعادة العلاقة مع الله. لم تكن الذبيحة "دفعًا"، بل فعل عبادةٍ يُظهر الرغبة في التصالح مع الله.

كان موتُ المسيح ذبيحةً من قبله إذ لم يكن من داعٍ لأن يموت. فهو لم يرتكب خطيئة، لذا لم يكن خاضعًا للموت مثلنا. لقد قبلَ الموت نيابةً عنَّا، واختار أن يموت، وهكذا بذلَ نفسه طوعًا. لم يمُت لأنَّ الله تطلَّب ذلك، لكي "يدفع شخصٌ ما الثمن أو يُعاقب". لقد اختار أن يموت ليغلب الموت. لا تكون "الذبيحة" قسريَّة، بل على العكس، هي فعلٌ حرٌّ وطوعيٌّ نابغٌ من المحبَّة أو من الجود المفيض. عندما نُضحِّي من أجل الآخرين - من أجل أولادنا، أو والدينا، أو زملاء العمل - فنحن لا نفعل ذلك لأنه "مطلوبٌ" مِنَّا، بل لأننا نختار القيام بذلك بسبب محبَّتنا لهم. إنَّ حقيقة أنَّ موت المسيح كان "ذبيحة"، لا تثبت أنَّه كان "مطلوبًا" منه أن يموت، بل تثبت العكس تمامًا. فكلُّ ما هو "مطلوب" ليس ذبيحةً بل هو التزام. وتشير الكنيسة الأرثوذكسيَّة مرارًا وتكرارًا إلى موت المسيح الطوعيِّ، وإلى أنه قبلَ طوعًا أن يموت على الصليب. لقد كانت ذبيحةً لأنَّها لم تكن ضرورةً مفروضة، بل هو اختارَ القيام بها.

"لكنَّ موت المسيح يُدعى فديةً أو افتداءً!"

نعم، لقد افتدانا المسيح أو فداننا، ولكن من ماذا؟ تجيبنا تراتيل القيامة عن ذلك: لقد افتدانا من الموت. ليس الصليب دفعَ ثمن، ولم يكن الله الآب بحاجةً إليه ولم يطلبه. لا يمكن أن يكون الصليب إلا افتداءً من الموت، وإلا، إذا كان فديةً أو دفعًا، فلمن دُفع؟ للشيطان؟ للآب؟

لقد دافعَ القدِّيس غريغوريوس اللاهوتي ضدَّ هذا الرأي، وعبرَ ببراعةٍ عن لاهوت الكنيسة الأولى الذي لا يزال تعليمَ الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليوم. إنَّ الصليب هو حرِّيتنا وتقديسنا، أوضح قائلًا:

"لمن سُفِكَ الدَّمُ الذي أُهْرِقَ عَنَّا؟ ولماذا سُفِكَ ذلك الدَّمُ العظيم والمجيد، دَمُ الله، الذي هو رئيس كهنةٍ وذبيحةٍ في آنٍ واحدٍ؟ لأننا كنَّا مُستعبدين من الشرير، ومبيعين تحت وطأة الخطيئة، وقد نلنا لذةً مقابل انزلاقنا في الشرِّ. ولكن، إذا كانت الفدية لا تُعطى إلا لمن يستعبدنا، فإنِّي أتساءلُ لمن دُفَعَتْ ولأَيِّ سببٍ؟ إذا كانت قد دُفَعَتْ للشرير، فبأيه من أمرٍ مُخزٍ! إذ لم ينلِ اللصُّ فديةً من الله فحسب، بل نالَ الله نفسه فديةً... أمَّا إذا كانت قد قُدِّمَتْ للآبِ، فكيف؟ فنحن لم نكن مأسورين لديه. وثانيًا، على أيِّ أساسٍ يُسَرُّ الآبُ بدمِ ابنه الوحيد، هو الذي لم يقبل إسْحَقَ عندما قدَّمه أبوه، بل استبدلَ الذبيحة مُقدِّمًا كبشًا مكان الذبيحة العاقلة؟ من الواضح أنَّ الآبَ قَبِلَ دَمَ ابنه، مع أنَّه لم يطلبه ولم يحتجِ إليه، وذلك بسبب التدبير الإلهي ولأنَّ الإنسان يجب أن يتقدَّسَ بناسوتِ الله، لكي يحرِّرنا الله نفسه ويهزم الطاغية بالقوَّة" (الخطبة 45، 22).

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

Source: Dr. Jeannie Constantinou's Newsletter "Thinking Orthodox", "Why Did Christ Die? Part 2," April 2026